الباب السادس

ابن خلدون يأخذ عن ابن النفيس

- نظرية الاجتماع الإنسانى
- الخلافة الإسلامية نظاماً للحكم

ابن خلدون يأخذ عن ابن النفيس

ابن النفيس هو علىّ علاء الدين بن أبى الحزم المشهور بابن النفيس ، وهو من مشاهير أطباء المسلمين ، ولد فى دمشق سنة ٦٠٧هـ ثم عاش فى القاهرة وتوفى بها سنة ٦٨٧ مخلفاً كثيراً من المؤلفات النفيسة التى من بينها كتاب قيم عالج فيه الوصول إلى معرفة الله عن طريق التفكر على نهج أقرب ما يكون إلى نهج ابن طفيل فى كتابه المشهور « حى بن يقظان » اسمه « السيرة الكاملة »[1] لأن بطلها اسمه كامل ، ثم أكمل الرسالة فى السيرة النبوية .

لقد ولد « كامل » فى جزيرة نائية من غير أبوين ، وتخلّق نتيجة تخمير المواد الطبيعية التى حملتها السيول إلى إحد المغارات .

إن ابن النفيس استطاع أن يتوصل من خلال السيرة الكاملية إلى معرفة الله سبحانه ، وأنه واجب الوجود ، وأنه يبعث بالرسل الذين خاتمهم محمد ﷺ ، ويروى « كامل » سيرة محمد ﷺ قبل البعثة وبعدها إلى أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، ولكن سيرته جاءت بصورة مختلفة عما ألفناه عند كتّاب السيرة النبوية الشريفة .

والذى يعنينا فى هذا المجال هو تأثر ابن خلدون بعدد من أفكار ابن النفيس فى السيرة الكاملية فيما يتعلق بنظرية العمران ، بل إن الأمر قد يتعدى ظاهرة التأثر إلى واقع النقل ، خاصة وأن ابن خلدون بحكم ثقافته وقراءاته لابدّ له من أن يكون قد اطلع على رسالة ابن النفيس الذى لا تزيد الفترة الزمنية بين وفاته وميلاد ابن خلدون

---

(١) قام بتحقيقها صديقنا الأستاذ عبد المنعم محمد عمر ونشرها الأزهر الشريف .

عن خمسة وأربعين عاماً ، فقد كانت وفاة ابن النفيس سنة ٦٨٧ وكان ميلاد ابن خلدون سنة ٧٣٢هـ .

نشأ كامل فى الجزيرة ونما وترعرع عارياً ضخم الجثة ، يأكل من الثمار الكثيرة التى تحملها أشجار الجزيرة ، وذات يوم ألقت الرياح العاتية بسفينة على شاطىء الجزيرة ، فانتشر ركابها يحتطبون ويجنون الثمار ويقضون بعض الوقت ريثما يصلحون من شأن سفينتهم وتصير صالحة للإبحار .

رأى كامل ركاب السفينة ، وكانت أول مرة يقع فيها نظره على بنى الإنسان – وكان قبل ذلك قد توصل إلى معرفة الله عن طريق تدبره الكون الذى يعيش فيه – ولم يلبث ركاب السفينة حين رأوه أن استأنسوه بأن ألقوا إليه شيئاً من طعامهم ، فاستطعمه حين ذاقه ، وكان هذا أول طعام مصنوع يتناوله .

وحين انتهى ركاب السفينة من إصلاحها وعزموا على الإقلاع ، رغب كامل فى السفر معهم ، وكان يظن أنه لا يوجد غير جزيرته ، فحملوه معهم إلى مدينة قريبة من تلك الجزيرة ، فأكل من طعام أهلها ، ولبس ملبوساتهم ، وتذكر ما كان عليه من سوء العيش بسبب دوام التعرّى فى البرد والحر ، والاقتصار على الأغذية الطبيعية ، ووصول الحيوانات إليه ، ونهشها له كل وقت .

(١)

نظرية الاجتماع الإنسانى

يقول ابن النفيس على لسان « كامل » بطل السيرة مستطرداً فى حديث هو العمران نفسه : « فعلم كامل أن الإنسان بسبب فقدانه السلاح الطبيعى ، واحتياجه إلى غذاء صناعى وملبس صناعى ، ليست تجود عيشته إذا انفرد بنفسه ، بل لابدّ أن يكون الإنسان مدنياً حتى يكون مع جماعة يكون لبعضهم أن يزرع ، وللآخر أن

يحرث ، وللآخر أن يخبز ، وللآخر أن ينقل المادة ، وللآخر أن يخيط الثياب وغير ذلك »[٢] .

جاء ابن خلدون بعد ذلك بعشرات السنين وتحدث فى جانب من نظرية العمران على هذا النحو :

« لابدّ له – أى للإنسان – من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم ، وهو معنى العمران ، وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه فى صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهداه إلى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ، غير موفية له بمادة حياته منه ، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً ، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة ، من حداد ونجار وفاخورى » ثم يستطرد ابن خلدون قائلاً : « هب أنه يأكله حبًّا من غير علاج ، فهو أيضاً يحتاج فى تحصيله حبًّا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه ، من الزراعة والحصاد والدّراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل »[٣] .

أليست معانى ابن خلدون هنا هى نفسها معانى ابن النفيس هناك ، بل إن الأمر لم يقف عند المعانى وحدها ، وإنما تجاوزها إلى استعمال الألفاظ نفسها فى نطاق نظرية الاجتماع الإنسانى .

ويتناول ابن النفيس قضية التعامل بين الناس فى الاجتماع الإنسانى قائلاً : « وإذ الإنسان يحتاج فى جودة معيشته إلى ذلك – يعنى إلى الزارع والحارث والخباز والخياط – فهو لا محالة محتاج إلى وقوع معاملة ، كبيع وإجارة ونحوهما ، وهذه المعاملة تؤدى إلى المنازعة ، وكل أحد يرى أن ما له حق ، وأن ما عليه باطل ، فلذلك إنما تجود

(٢) السيرة الكاملية ص ١١٢ تحقيق عبد المنعم محمد عمر منشورات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف .
(٣) المقدمة ص ٦٩ ، ٧٠ ط دار الكتاب اللبنانى .

عيشة الإنسان بأن يكون مع جمع بينهم شرع محفوظ تنقطع به المنازعة »[٤] .

إن ابن خلدون يأخذ عن ابن النفيس الموضوع نفسه والظاهرة نفسها ويقدمهما من خلال كلمات لا تخرج عما قصد إليه ابن النفيس ، وأجاد التعبير عنهما ، يقول ابن خلدون : « إذا اجتمعوا – يقصد الناس – دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ، ومدّ كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه؛ لما فى الطبيعة الحيوانية من ظلم وعدوان بعضهم على بعض »[٥] ومثلما انتهى ابن النفيس إلى ضرورة الحكومة الشرعية ينتهى ابن خلدون إلى نفس النتيجة فى مواطن شتى من مقدمته .

(٢)

الخلافة الإسلامية نظاماً للحكم

وعن الحكومة المنطلقة من صيغة شرعية يأتى بأحكامها نبى أو رسول ، يبدى ابن النفيس وجهة نظره من ضرورة وجود مثل هذه الحكومة الشرعية على النحو التالى ؛ استكمالاً للصيغة التى سبق ذكر جانب منها : « إنما تجود عيشة الإنسان بأن يكون مع جمع بينهم شرع محفوظ تنقطع به المنازعة ، وإنما يمكن ذلك بأن يكون ذلك الشرع مما يتلقى بالطاعة والقبول ، وإنما يكون ذلك إذا اعتقد أنه من الله تعالى ، وإنما يكون ذلك إذا كان وروده من شخص يصدقه الناس فى إخباره أنه من الله تعالى ، وهذا الشخص ليس يمكن أن يكون حيواناً غير إنسان؛ فإن غير الإنسان من الحيوانات لا نطق له البتة ، فضلاً عن أن يكون مبلّغاً لشرع ، ولا يمكن أن يكون مما لا يقوى أكثر الناس على الإحساس به كالملك أو الجن ، وإلا لم يتمكن الجمهور من سماع الشرع منه ، فلذلك لابدّ أن يكون هذا الشخص إنساناً ..... ولابد أن يكون هذا الشخص ذا

---

(٤) السيرة الكاملية ص ١١٢ .

(٥) المقدمة ص ١٨٧ .

معجزة يشعر الأنفس معه أن ما جاء به ليس بزور ولا باطل ، بل هو حق من عند الله تعالى ، والشخص الذى له ذلك هو النبى ﷺ »[٦] .

إن ابن خلدون قد قرأ هذا النص بما لا يدع مجالاً لشك ، ومع أن هذا النص يطالب بالحكومة الإسلامية للمجتمع الإنسانى ، وهو نفس ما يتبناه ابن خلدون ، فإنه يرفض صيغته ؛ لأنها صيغة فلسفية – وقد كان ابن النفيس طبيباً فيلسوفاً – والذى يراه ابن خلدون أن تكون الحكومة الإسلامية نابعة من منطلق شرعى فقهى ، وليس من منطق شرعى فلسفى .

يقول ابن خلدون معارضاً ابن النفيس دون أن يذكر اسمه أو يشير إليه إشارة قريبة أو بعيدة : « وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان – وهو أن الإنسان يتميز بالعقل دون الحيوان – حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلى ، وأنها خاصة طبيعية للإنسان ، فيقررون هذا البرهان إلى غايته ، وأنه لابدّ للبشر من الحكم الوازع ، ثم يقولون بعد ذلك : وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتى به واحد من البشر ، وأنه لابدّ أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ؛ ليقع التسليم له والقبول منه ، حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزييف »[٧] ويمضى ابن خلدون معارضاً فكرة الحكومة الشرعية طبقاً لما صوّرها ابن النفيس ، مقدماً الحكومة التى يقترحها هو ، وهى الحكومة التى تعتمد على العصبية ، وهى التى خصصنا لها فصلاً مستقلاً فى هذا الكتاب . يقول ابن خلدون فى سياق معارضته : « وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه ؛ إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم نفسه ، أو بالعصبية التى يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته »[٨] .

ويعقد ابن النفيس فصلاً عن نظام الحكم تحت عنوان « ما يسنّه النبى ﷺ من

(٦) الرسالة الكاملية ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٧) المقدمة ص ٧١ ، ٧٢ ط دار الكتاب اللبنانى .

(٨) المقدمة ص ٧٢ ، ٧٣ .

العقوبات » لأن كتابه فى السيرة النبوية ، ويقرر ضرورة أن يكون لمجتمع المسلمين عدد من الحكام الذين يسميهم بالملوك ، وأن يكون هؤلاء جميعاً خاضعين لمخليفة .

يقول ابن النفيس : « هل يحتاج أن يجعل من جملة هذا الشرع - الإسلامى - أن يكون للناس ملك يحكم عليهم بذلك الشرع ويلزمهم اتباعه ، أم يكفى تفصيل أحكام المعاملات وغيرها والناس يرجعون إلى ذلك بأنفسهم ؟ فرأى -أى كامل بطل قصة السيرة - أن من الناس من تشتد محبته للظلم : فلم يردعه عنه علم بنهى الشرع عنه فقط ، بل إنما ينتهى عن ذلك بقاهر يقهره عليه ، وذلك القاهر إنما يتمكن من ذلك إذا كان مطاع الأمر عند الناس ، وذلك هو الملك ، ويجب أن يكون لكل مدينة ملك أو قائم مقامه ، وهو نائب الملك ، ولا يترك الملوك وطباعهم ، فقد يكثر منهم الجوْر ؛ فلذلك يجعل أمرهم إلى واحد يحكم عليهم ، وذلك هو الخليفة ، ويجب أن ينهى عن كل أمر يؤدى إلى فساد حال النفس ، أو فساد حال المال ، أو فساد حال العقل ، فلذلك يحرم القتل والسرقة والغصْب والسكر ، ويجعل لكل واحد من ذلك ونحوه عقوبة تردع الناس عن الإقدام عليه ، فيجعل على القتل القصاص إن كان عمداً ، أما إذا وقع خطأ ..... فيسنّ عليه مثل الدية ، وأما السرقة فيجعل فيها مثل قطع اليد ، فإنها هى التى تنسب إليها السرقة ، وكذلك يجعل على كل مفسدة ما يناسبها »[٩] .

ويمضى ابن النفيس فى تعداد أنواع القصاص الذى يناسب كل جريمة ترتكب ، وهذا القصاص ينبع من الشرع الإسلامى .

إن ابن النفيس يكتب عن التشريع الإسلامى كنظام حكم ضرورى ، وعن الخلافة كاختيار أسمى لحكم المجتمع ، وأن يكون الحاكم الأعلى خليفة ، وأن يكون هذا الخليفة ممسكاً بزمام الأمور فى نطاق من القوة وسياج من الكفاية .

الحق أن ابن خلدون لم يخرج عن فكر ابن النفيس فيما يتعلق بنظام الحكم ، وهو

---

(٩) السيرة الكاملية ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

الخلافة على وجه التحقيق ، إنه يتفق اتفاقاً كاملاً مع فكر ابن النفيس هذا الذى أوردنا طرفاً منه فيما يتصل بنظام الحكم .

يقوم ابن خلدون بعرض عدة نماذج للحكم ، منها ما كان بمقتضى السياسة والحكم ، ومنها ما كان بمقتضى القهر ، ومنها ما كان مفروضاً من الله بشارع يقررها ويشرعها . إن ابن خلدون يرفض النموذجين الأول والثانى ويذمهما ، ويختار النظام الإلهى كى يطبق فى المجتمع الإنسانى أو العمران البشرى ، ويقول فى هذا السياق : « إذا كانت —القوانين— مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها ، كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا والآخرة ، وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط ، فإنها كلها عبث وباطل ؛ إذ غايتها الموت والفناء ، والله يقول [**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**] فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضى بهم إلى السعادة فى آخرتهم [**صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ**] فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة ، حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع الإنسانى ، فأجرته على منهاج الدين ؛ ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع »[10] .

يمضى ابن خلدون فى الحديث عن فضل الحكومة الشرعية الإسلامية التى يرأسها الخليفة ، وهو فى ذلك مقتف أثر ابن النفيس أو متأثر به تأثراً واضحاً فيقول : « .... لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيّب عنهم من أمور آخرتهم ، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم فى معادهم من ملك أو غيره ، قال ﷺ (**إنما هى أعمالكم تردّ عليكم**) وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط [**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**] ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم ، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى أحوال دنياهم وآخرتهم ، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ، ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء »[11] .

(١٠) المقدمة ص ٣٣٧ ط دار الكتاب .

(١١) المصدر السابق ص ٣٣٨ .

إن ابن خلدون صاحب فكر عظيم ، وإن جهوده فى إبداع فكرة المجتمع الإنسانى والعمران البشرى تعتبر من الإنجازات العلمية الكبيرة ، ولكنه لم يكن فى كل ما كتبه فى نظريته تلك صاحب إبداع وتفرد وأصالة ، فقد سبقه فى كثير مما عرضه فى مقدمته فى نطاق العمران البشرى الطبيب المصرى ابن النفيس ، ونحن لا نشك فى أن ابن خلدون قد اطلع على فكر ابن النفيس فى كتاب « السيرة الكاملية » ، وأنه قد أفاد منه ونقل عنه ، وكان من الخير له أن يشير إلى ذلك ، لا أن يتجاهله ، وألا يقرر أنه غير مسبوق إلى ذلك حسبما كتب فى المقدمة فى أكثر من مكان ، وإن ساق ذلك فى ثوب من القول جمع بين الفخر المستتر والتواضع المعلن .